

نمـوذج الدولـة القوميـة وصناعة الغثائية

مؤمن سحنون

مؤسسة النازعات
Anaziat

صفر
١٤٤٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج الدولة القومية وصناعة الغثائية

مؤمن سحنون

النازعات

صفر ١٤٤٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لمَّا كانت وظيفة تأسيس الإنسان الحر والواعي الركيزة لحياة كريمة في المجتمعات قديمًا وحديثًا، كان لمن يريد أن يستعبد الناس ويأمنَ يقظتهم أن يعمل على هدم جانب القوة في الشعب ليبقيه مستباح الحقوق منتهك الكرامة تكسوه قابلية للاستبداد والاحتلال، يأمن عدوه الداخلي والخارجي من بأسه وانتفاضته وثورته لدفع المظالم.

فالمنظومات الحاكمة في بلداننا تعمل على هدر الخصائص الكريمة للإنسان، بداية من سلبه مقومات العزة والإباء والوعي وانتهاءً بسلبه حقوقه وثروات بلاده وتفقيره، وإخضاعه لحالة من التعايش والتطبيع مع الاحتلال المحلي(١)، أو الخارجي.

ولا يمكن لهذا أن يحدث دون إنتاج آلية من الضبط الاجتماعي والفكري والأمني تصنع بمجملها حالة من السيولة التي يسهل من خلالها توجيه الناس، حالة من الإمعية تذوب فيها خصائص الفرد في التيار العام الذي صنعته السلطة بكافة فروعها، وتقوي الرأي العام المضاد للخروج عن التيار.

---

(١) انظر: «الأوطان بين احتلالين.. محليّ وأجنبي» للكاتب.

لكننا في هذا الزمن، نعيش داخل نموذج خاص لدولة قومية معاصرة خلفه عهد الاحتلال المباشر، نموذج يتسم بتأثيرات عميقة يضفيها على المجتمعات والأفراد في الحياة تحت سطوته، ولهذا النموذج دوره البالغ في صناعة الغثائية.

فما الغثائية وما دور طبيعة الحياة في نموذج الدولة القومية الحديثة على إشاعة حالة الغثائية؟

ما الغثائية؟

عن أبي عبد السلام، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أن تداعى عليكم كما تَداعى الأكَلَةُ إلى قَصعتِها**»، فقال قائل: ومِن قِلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكِنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعَنَّ اللهُ من صُدورِ عَدُوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ**»، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، وما الوَهْنُ؟ قال: «**حُبُّ الدُّنيا، وكراهيةُ الموتِ**».

والغثاء منه الزبد الذي يطفو على وجه سيل الأمواج، فالسيل يصنع ويوجه الغثاء والزبد، والسيل يمثل التيار الذي يجري داخله الغثاء، فيصنع به ما يشاء، تارة يذهب به في هذه الجهة وتارة يقذف به في وجهة أخرى وتارة يتركه راكدًا بلا حراك، فلا قدرة للغثاء الذي يتصف بخفته على الحركة والتوجه خارج محددات السيل، ولا خصائص ذاتية تمكنه من الانفكاك عن غلبة التيار.

هذه إذن القضية التي بسببها تداعت علينا الأمم، وتحولنا من شعوب الموت الكريم أحب إليها من الحياة الذليلة إلى شعوب تعيش داخل السيل حياة أحب إليها من الموت، ومن أمة مهابة تنتصر على أعدائها بالرعب قبل حتى أن تواجههم إلى أسرى داخل دول قومية تسجنها في حدودها وأنظمتها في حالة من الرعب... إنها حالة ناتجة عن مرضنا بالغثائية.

نمط الحياة في نموذج الدولة القومية الحديثة

بداية فإن السمة البارزة لنموذج الدولة القومية الحديثة أنها تستأثر بالمهام الحيوية للمجتمع، إنها المشرع والمشرع الوحيد، المعلم والمعلم الوحيد، والممتلك الوحيد لحق استعمال القوة والعنف، بل تقوم الدولة القومية بإخضاع حتى الدين لسلطانها، فتنتج دينًا يشرعن نموذجها العَلماني ويلعب داخلها وداخل محدداتها دور المكمل للمسرحية المعروضة أمام الجماهير، فهو رواية عن دين تتحكم فيه قوانين الدولة الوضعية العَلمانية، تبيح ما ترى إباحته منه وتحرم على الناس ما تريد تحريمه، وتعطي المؤسسة الدينية الرسمية للدولة القومية شرعية لهذا النموذج أمام الشعب وتعمل على استدامته وتحريم الخروج عليه أو تغييره.

إن الحياة في نموذج الدولة القومية تنقسم إلى طرفين، سلطة ومجموع أفراد يمثلون المجتمع، سلطة تتمترس بكل أشكال الطغيان وتملك وسائل شرعنتها،

وأفراد مسلوبي القوى علمتهم الدولة تعليمها الرسمي الذي لا يرتقي بهم أكثر من ما تحدده؛ لكي يبقى تفكير الشعب في مستوى تحكم الدولة وضبطها.

وتستأثر الدولة بوسائل مخاطبة الجماهير الممثلة في الإعلام والأجهزة الثقافية، فالرواية التاريخية ما ترويه الدولة في مسلسلاتها، والأبطال هم رموز الدولة والأشرار هم الخارجون عن طاعة رموز الدولة، الخير والشر والأمن والخوف والحق والواجب والممنوع والحلال والحرام والمواطن الصالح والخارج عن القانون.. كلها قيم تحددها الدولة وتنشرها وتفرضها على الناس عن طريق مؤسساتها والناطقين بلسانها سواء كانوا من أصحاب الكراسي أو أدعياء الثقافة أو المؤثرين العاملين صلبها أو من عمائم البلاط، في وسط هذا كله تعمل الدولة القومية على صناعة وترويج الغثائية في المجتمع، فما مقومات صناعة الغثائية؟

من مقومات صناعة الغثائية

سنكتفي بذكر بعض المقومات على سبيل التدليل على منهج هذا النموذج في تصنيع واشاعة الغثائية:

أولًا: التشريع الغثائي

يتأسس نموذج الدولة القومية الحديثة على ادعاء الحق في التشريع في المجال العام وحتى في المجال الخاص والأحوال الشخصية، فالدولة بهذا عند المؤمنين بها مصدر للقيم المطلقة ولها حق الانفراد بالتشريع، وبعد العملية الممنهجة من

إلغاء تشريع الوحي واستبداله بالقوانين الوضعية أصبح التشريع في الدولة القومية يفرض هيمنته على أحكام الوحي، يقبل منها ما يوافق عَلمانية الدولة ويرفض ما يمكن أن يعطي للشعوب قوتها ومناعتها وكرامتها، بالتزامن مع عمل أجهزة الإعلام على تشويه المنظومة القيمية الأصلية المبنية على الوحي بتحويل أحكامها إلى محل للاستهزاء والسخرية في المواد الإعلامية من برامج ومسلسلات ومسرحيات وأفلام، لتنفير الناس منها مقابل تعويدهم على الخضوع للتشريع الوضعي للدولة.

وتسهر المؤسسات على ضمان علوية هذه القوانين الوضعية على رقاب المستضعفين وأعراضهم وأموالهم، تسهر على ضمان لعبة القانون الذي يسري على الضعفاء ويستثني أصحاب السلطة والنفوذ الذين لا يشملهم القانون أصلًا.

تُنفذ أقصى العقوبات على مَن سرق جوعًا بينما يحمي القانون عصابات ربطات العنق ناهبي مقدرات الشعب، وما كانت عقود استغلال ونهب النفط والغاز والثروات في بلادنا لتعقدَ لو بقيت المنظومة القانونية الأصلية المبنية على الفقه الإسلامي، لكنهم قاموا بإلغائها ليسهل التلاعب وسلب أسباب تقوية الشعوب، حتى ينقسم الناس بين فقر مَنسي وغنى مطغي، ويسهل توجيههم في سيل الغثائية.

ثانيًا: احتكار وسائل القوة في مقابل صناعة الهشاشة

يقوم نموذج الدولة القومية الحديثة على مبدأ الاستئثار باستعمال وتوظيف القوة وحق التفرد بوسائل العنف، ما يعني سلب الشعب والأفراد وسائل دفاعهم عن أنفسهم في وجه تغول الدولة من جهة وفي وجه الاحتلال الخارجي من جهة أخرى، وما يعني تمكين الدولة من إمكانية ممارسة أقصى أنواع البطش بالشعب تحت غطاء القانون بتعلة المحافظة على الدولة، وقد تباد ملايين من الشعب لكي يبقى النظام، وما الحفاظ على النظام هنا ولا حماية الدولة هناك إلا ستار لأصحاب الكراسي، وشعار يرفعونه لحماية مناصبهم وعروشهم، فما الدولة لو لم تكن الشعب، وما النظام لو لم يكن الحفاظ على قيم ودماء وأعراض ومصالح ومقدرات الشعب!

إن معنى النظام في الدولة القومية العربية هو وجود سلطة بمؤسساتها متسلطة على كاهل الشعب تقوم بإدارة البلاد بحيث تضمن بقاء النظام الحاكم، فهدم الخصائص الإنسانية للشعب بإذلاله وكسر بأسه غاية مركزية للنظام كي يبقى عرش الحاكم، وتسمى هذه العملية في أعرافهم المحافظة على الدولة.

فالأمن في الدولة القومية هو أمن النظام لا أمن الشعب، والدفاع هو الدفاع عن بقاء النظام لا الدفاع عن حقوق الشعب من الاستبداد الداخلي والاحتلال الخارجي، والعدو هو مَن يحاول تحرير الناس من أسرهم هذا الذي هم فيه.

إن من الغثائية صناعة شعب ضعيف لا يملك القوة الفكرية ولا القوة المادية ولا مهارات الدفاع عن الحقوق والحريات ومواجهة الأعداء المرتقبين كالاحتلال وغيره، لهذا تعتبر المؤسسات القمعية من أكثر ما يبث الغثائية في الشعب.

ثالثًا: السيطرة على وسائل الإعلام والتوجيه والتأثير

من أخطر ما تملكه وتستأثر به الدولة القومية سيطرتها على وسائل مخاطبة الشعب عبر هيمنتها على الآلة الإعلامية، إذ يترجم الإعلام خطاب السلطة إلى برامج حوارية تطرح رؤيتها ومسلسلات وأفلام تخدم توجهها وتشيطن معارضيها، إن الأجهزة الإعلامية في بلداننا ركيزة أساسية في صناعة تيار الغثاء ونشر الإمَّعية بين الشباب خاصة بتقديم رموز غثائيين وتلميعهم ليكونوا قدوات للشباب، تزامنًا مع تغييب الأكفاء الحقيقيين ليتواصل تخدير الوعي.

إن عمل الإعلام الغثائي لهو في الخطورة بمكان؛ إذ إنه يصنع الرأي العام ويطرح القضايا التي يراد للشعوب والشباب الانشغال بها عبر بث الميوعة والتطبيع مع الشذوذ على اختلاف أشكاله.. في نفس الوقت الذي تغيب فيه قضايا ثروات الشعب المنهوبة وحقوقه المسلوبة وبلاده المحتلة عن الطرح الإعلامي.

فقد يعتبر أغلب أفراد المجتمع أن قراراتهم منطلقة من حرية اختيارهم الشخصي، لكن في الحقيقة هناك عمل إعلامي كبير على إنشاء الرغبات عند

الناس بالتلقين والدعاية والأعمال الفنية، لصناعة خلفية في اللاوعي تؤدي إلى قرارات وميول متشابهة، فكما قال جيرالد زالتمان في كتابه «كيف يفكر الزبائن – How Customers Think» أنه «استقر في ذهن العديد من العلماء النفسيين أننا معاشر البشر نأخذ ٥٪ فقط من قراراتنا بناء على أسباب عقلانية رشيدة، بينما ٩٥٪ من قراراتنا يتخذها نيابة عنا –دون وعي منا أو إدراك– العقل الباطن (اللاواعي).. وهذا الأخير كنز دفين نعرف عنه القليل... من ضمن ما يقع تحت تصنيف العقل الباطن القناعات الراسخة والتي تتكون دون وعي منا، والتي قد يكون من ضمنها: سياسة السير مع القطيع»!

إن وجود التيار الذي يسير فيه الغثاء واستدامة عملية الإمَّعية داخله ونشرها في الشعب لوسيلة خطيرة من وسائل صناعة الغثائية، خاصة أنها توجه الشعب وتقوده فكريًّا لبقائه داخل السيل يرميه حيث يشاء.

رابعًا: تربية إنسان الغثاء وتعليمه

منذ نعومة الأظافر يدخل الفرد في الدولة القومية الحديثة عبر مراحل وجرعات تناسب كل مرحلة منها عمر الفرد ومداركه داخل أجهزة التربية الغثائية، يربى فيها في كل مرحلة على قيم ومفاهيم تؤهله لينخرط في السيل ويكون أحد تروسه، ويبعد كل البعد عن الخروج والتحرر منه، بل يقع تكوينه

وتربيته على احترام حركة الغثاء الطافح فوق الأمواج فهذا هو النظام الذي على المواطن الصالح الحياة داخله في رضا وانضباط.

لقد وقع منذ زمن اكتشاف وسائل أكثر فاعلية من الإبادة التي قد تكلف أصحابها كثيرًا، يكفي أن تربي وتعلم من تحتاج أن تخضعهم على المفاهيم التي تريدها حتى يصبحوا طائعين سلسي القياد منزوعي البأس، إن التربية على العبودية وعلى الخضوع لهي ركن أساسي في عالَمنا المعاصر، بل وقع التأصيل لذلك والتنظير له ثم تحول إلى استراتيجيات للدول استعمارية ترجمتها بعدها الدول الاستبدادية وارثة الاستعمار إلى سياسات وتوجيهات تحكم بها الشعوب.

وكان من تلك التأصيلات وثيقة ويلي لانش (Willie Lynch) وتوصياتها[1]، في ما يخص تعامل الأمريكان مع العبيد السود في أمريكا والتي تحولت فيما بعد إلى استراتيجيات لتعامل أمريكا مع العالم وتوصيات للحكومات الخاضعة للهيمنة الأمريكية للتعامل مع شعوبها، كما يمكن أن نلاحظ بروز آلية التربية على العبودية مبكرا مع تصريح مارك توين حين كان يؤدي نصحه لوزير الحرب في أمريكا بخصوص مواجهة الهنود الحمر السكان الأصليين للبلاد حيث قال: «وقفت بجانب وزير الحرب وقلت له عليه أن

---

[1] للقراءة أكثر حول الوثيقة انظر: «ماذا تعرف عن وثيقة ويلي لانش؟».

يجمع كل الهنود في مكان مناسب ويذبحهم مرة وإلى الأبد. وقلت له: إذا لم توافق على هذه الخطة فإن البديل الناجع هو الصابون والتعليم. الصابون والتعليم أنجح من المذبحة المباشرة، وأدوم وأعظم فتكًا. إن الهنود قد يتعافون بعد مجزرة أو شبه مجزرة، لكنك حين تعلم الهندي وتغسله فإنك ستقضي عليه حتمًا، عاجلًا أم آجلًا. التعليم والصابون سينسفان كيانه ويدمران قواعد وجوده. وقلت له: سيدي اقصف كل هندي من هنود السهول بالصابون والتعليم، ودعه يموت».

إن التربية الغثائية التي نتلقاها لهي عامل أساسي من عوامل هذه الحالة من استلاب الإرادة وفقدان تيارنا الخاص مقابل الانجراف في سيل الزبد، ومقابل إنسان الغثاء يوجد الإنسان الحر الذي ليس عنده قابلية للترويض الذي تمارسه التربية الغثائية.

خامسًا: بث خطاب الغثائية بين وجهته العَلمانية والدينية الرسمية

كما سعت المنظومات الحاكمة إلى إيجاد نخب عَلمانية تبث السموم في عقول الشعب وتتوجه به لتبني أسلوب عدوه الغربي في الحياة وتعمل على تمجيده تقليده تقليدًا أعمى والتماهي مع خططه في المنطقة، وتعيد قراءة الإرث التاريخي والعلمي لهذه المجتمعات كله بما يوافق الحضارة الغربية المعاصرة، وسعت كذلك لصناعة مؤسسات دينية رسمية تنطق باسم السلطة وتنشر دين

الحاكم الذي قوامه الغثائية، دين منزوع المخالب لا ينكر منكرًا ولا يأمر بمعروف إلا في الحدود التي رسمتها المنظومة.

وتحرص المنظومات الحاكمة في بلادنا على رعاية كلا الطرفين، طرف النخب العلمانية اللادينية ونخب المؤسسات الدينية الرسمية ورموز غلاة الطاعة، لأن النخب العَلمانية تعمل على تفكيك الهوية المحلية التي هي ركيزة الاستقلال والذات الحضارية، كما تعمل على تذويبها في جسد المحتل.

أما التيار الديني الذي صنعته السلطة فيحرف المفاهيم الكبرى ورسالة التحرر المركزية في الإسلام وقضية مقاومة الطغيان المحلي ودفع المحتل الأجنبي واستعادة الثروات المنهوبة والأراضي المغصوبة، يحرف كل هذا إلى دين سلبي يخاطب الفرد بتعاليم فردية منفصلة عن رسالة الحركة الكونية لهذا الدين، يفرغ مياه الأنهار الكبرى لهذا الدين في تفرعات تبدد التيار، ليسهل إدخال الناس في التيار المقابل؛ تيار الغثائية.

خاتمة

إن هذا النموذج -نموذج الدولة القومية- يمثل بكل مخرجاته سجنًا كبيرًا لطاقات وفاعلية شباب الأمة وأفرادها وعقولها المتشوقة للإبداع وأحلامها بالحرية وبأن تعود هذه الأمة ذات ثقل بين الأمم.

إن فهم تداعيات هذا النموذج؛ فكريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وحتى نفسيًّا وأخلاقيًّا على تاريخنا المعاصر وعلى حياتنا اليومية وعلى رسالتنا وغاية وجودنا كمسلمين، ثم التحرر فكريًّا من التفكير داخل محددات هذا النموذج، والتحرر عمليًّا بالحركة خارج تلك المحددات وفق المنظومة القيمية الأصلية لهذه الأمة لهو الطريق لعودة الفاعلية في أفراد ومجتمعات وشعوب هذه البلدان المأسورة.

إنها مهمة توكل اليوم لكل مسلم على هذه البسيطة، إذ إننا لسنا مخيرين في خوض هذه المعركة!